المحاضرة (07): النقد الثقافي

تمهيد:

انشغل النقد الأدبي بوجود أشياء أخرى في النص الأدبي غير الأدبية، التي شغلت مجالا واسعا من الاهتمام على مستوى المقاربات النقدية، التي أفرطت ردحا من الزمن في معالجة المسألة الأدبية/الجمالية، وإقصاء أي عنصر لا يمكن إدراجه ضمن التصنيفات الجمالية، ولهذا بقي تأثير المؤسسة الثقافية معزولا عن البحث النقدي مع أنه يمارس حضوره بشكل قوى ضمن السيرورة الإبداعية للإنجاز الأدبي، لكن سرعان ما راح يتصدر المشهد النقدي بعد أن اضطر الناقد للاستحداث بديل منهجي نوعي يسد ثغرات التوجهات النقدية السابقة فهل وجد ضالته في النقد الثقافي؟.

تعريف النقد الثقافي:

لابد من التمييز بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي مع أنهما يندرجان تحت وصاية النقد الحضاري؛ حيث أن هناك «الدراسات الثقافية التي تهتم بكل ما يتعلق بالنشاط الثقافي الإنساني، وهي الأقدم ظهورا، والنقد الثقافي الذي يحلل النصوص والخطابات الأدبية والفنية والجمالية الشعرية، وهو الأحدث ظهورا بالمقارنة مع النوع الأول، وبالتالي يُعنى النقد الثقافي بالمؤلف، والسياق والمقصدية والقارئ والناقد، ومن ثم فالنقد الثقافي نقد إيديولوجي وفكري وعقائدي»[1].

النقد الثقافي مقاربة منهجية تهتم بالبحث في الأنساق المضمرة وتحليلها، بالنظر إلى تمثلاتها داخل الخطاب الأدبي، أخذا في الإجراء الوصفي التحليلي مجموع المرجعيات المنتجة للمعنى بعين الاعتبار؛ خاصة ما تعلق منها بالمؤلف والقارئ والناقد من مقاصد وتصورات نصية.

وإذا ما أردنا وضع النقد الثقافي تحت توصيف منهجي محدد من الممارسات النقدية الإجرائية؛ فإننا نأخذ في الحسبان مسألة موضوعه؛ على أساس أنه «يدرس النص من حيث علاقته بالإيديولوجيات والمؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ويقوم بالكشف عنها وتحليلها بعد عملية التشريح النصية»[2].

إن النقد الثقافي بالنظر إلى دائرة اهتمامه وموضوع بحثه، يمكن القول بأنه منهج يتمنّع عن التصنيف والتوصيف معا؛ فلا هو سياقي منغلق على مقولة السياق بحكم اشتغاله الواسع عليها، ولا هو نسقي بالمفهوم الشكلاني الصارم

[1] – صورية جغبوب، النقد الثقافي: مفهومه حدوده وأهم رواده، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة خنشلة، ع01، 14 جوان 2015، ص29.

[2] – نفسه، ص29.

الذي يحصر دراسة النص في معطاه اللغوي؛ بل نجده في انفتاح منقطع النظير على مختلف المؤثرات البانية للقصدية النصية.

النقد (الأدبي/الثقافي) الحدود ومقادير النفوذ:

يلتقي افتراضا كل من النقد الأدبي والنقد الثقافي على أعتاب التفكير، وممارسته بوصفه نشاطا يتجسد عبر السيرورة الإنشائية للغة، مع اختلاف في المحدد الهوياتي؛ فإذا تعلق الأمر بالأدب كنا بصدد النقد الأدبي، وإذا تعلق الأمر بالثقافة كنا بصدد النقد الثقافي، مع الإشارة إلى تحولات المشهد الدلالي بالنسبة لمصطلحي النقد والثقافي توافقا وفروض الزمان والمكان وما يتصل بهما من معرفة.

إن النقد الأدبي والنقد الثقافي يتصدّران المشهد النقدي على شاكلة المفاهيم المتاخمة أو الموازية حينا أو إيهاما بذلك في أحايين كثيرة، غير أن الخلفية الضدية التي فرضها بعض النقاد المشتغلين بالنقد الثقافي، بسبب حساسيتهم المفرطة تجاه النقد الأدبي حالت دون إمكانية الجمع بين الشتيتين؛ ف «كما أن النقد الأدبي نشاط فكري – يتجسد إنشاءً لغويا – ينتسب إلى الأدب الذي يُحدد هويته، فهو نقد أدبي. إنه موصوف (نقد) تتحدد هويته بصفته (أدبيا) المستمدة من واحد من أهم الفنون الجميلة هو الأدب. فذلك هو شأن النقد الثقافي، إنه نشاط فكري يتجسد إنشاءَ لغويا ينتسب إلى الثقافة (culture) التي تُحدد بدورها طبيعته ووظيفته وحدوده، كما تُحدد هويته (تكرار الأسلوب بشكل متطابق) التي تُميّزه عن غيره من ألوان النقد الأخرى، فهو نقد ثقافي (Cultural Criticism)، إنه موصوف (نقد) تتحدد هويته بصفته (ثقافيا) المستمدة من الثقافة (القومية غالبا) بتجلياتها المادية وغير المادية، أو المعنوية. غير أن ما غاب عن هذا بعضهم الأخير هو ما ينطوي عليه مصطلح "النقد" من خلافات تتصل بدلالاته المتحولة عبر الزمان والمكان، وما يتصل بمصطلح الثقافة من إشكالات محكومة بالمكان والزمان والبيئة المعرفية الخاصة به»[1].

تتحدد المسافة المعرفية الفاصلة افتراضا بين النقدين الأدبي والثقافي بالنظر إلى الموضوع؛ ذلك أن النقد الأدبي متعلق بالممارسات الأدبية، وأنه قد استمد توصيفه المعرفي منها من حيث الدور والوظيفة، بينما النقد الثقافي فمرتبط بالممارسات الثقافية، وكذلك نجده يستمد توصيفه المعرفي منها من حيث الدور والوظيفة، فضلا عن اتصاله الوثيق بمتطلبات الزمان والمكان وما يشتملان عليه من دلالات وإشكالات.

[1]– عبد النبي اصطيف، ما النقد الثقافي؟ ولماذا؟، فصول مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج(03/25)، ع99، ربيع 2017، ص15-16.

وبالنظر إلى تشعب المضمون الثقافي وامتداده، فإن محاولات الاقتراب منه لن تقل عنه سعة وامتدادا؛ وهذا ما يبرر كون «النقد الثقافي فعالية، لا فرعا معرفيا، فإنه يتوخى بلوغ المعارف الأخرى عبر استخدام واسع للنظريات والمفاهيم التي تتيح القرب من فعل الثقافة في المجتمعات»[1].

والنقد بمعزل عن توصيف الأدبي أو الثقافي شهد تغيرّا عبر مساره الطويل تحت أشكال لا نهائية من المراجعات، والمساءلات، وهذا ما انسحب أيضا على أي توصيف نوعي لازمه لاحقا، وأي بحث في أسئلته يقتضي بالضرورة البحث في هذا المسار على امتداده رصدا لمؤشرات التغير الكائنة.

ولكي نناقش الاشتغال الثقافي على الأدب، وما يدور في فلكه من قضايا؛ من قبيل فكرة البديل النوعي، واحتمالات التقاطع المعرفية إن افترضنا وجودها من عدمه، وجدلية النص النقدي في بعديه الموازي والمعارض؛ لا بد من ترسيم موضوع الممارسة في النقد الثقافي من منطلق أنه «فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي، وما هو كذلك سواء بسواء. من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. وهو لذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/الجمالي»[2].

لا يُعنى النقد الثقافي في دراسته للمنجز الأدبي بالمعطى الجمالي، بقدر البحث في ما وراء جمالية الخطاب وما تتستّر عليه من قيم ثقافية، تتكشف تحت مسمى النسق المضمر، ومن أهم الوسائط النوعية التي يعتمدها في التحليل المرجعية الألسنية؛ التي تضعه معرفيا في خانة النقد النصوصي العام.

وتتحقق مجاوزة مفهوم الجمالي في المنجز النقدي الثقافي من مدخل الاحتراز من الدخول في منطقة النقد الأدبي التي تسمح بذلك بحكم سيطرتها على الذهنية المساءلة للخطاب الأدبي منذ عقود من الممارسة؛ وهذا ما دفع النقد الثقافي إلى توضيح مسارات اشتغاله، وترسيم حدوده تأكيدا على استقلاليته واختلافه الإجرائي؛ «فالنقد الثقافي نشاط أو فعالية تُعنى بالأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعية والأخلاقية والإنسانية والقيم الحضارية، بل حتّى الأنساق الثقافية الدينية والسياسية، أما النص الأدبي فيتعامل معه ليس بوصفه نصا جماليا بل

[1]– محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي – الكتابة العربية في عالم متغير واقعها سياقاتها وبناها الشعورية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص12.

[2]– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2005، ص83-84.

بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر ما هو مضاد للمعلن في النص الأدبي، ويقصي الجانب الجمالي ووظيفته الشعرية؛ لأنه يؤدي إلى (العمى الثقافي) الذي لا يجعلنا نرى ... (الحيل الثقافية) التي يتوسم بها؛ لتمرير أنساقه المضمرة، والنقد الأدبي هو الذي يعنى بالجمالي والشعري في الأداء النصي»[1].

لولا أن النص الأدبي يحمل خاصية الضدية؛ أي أنه يستطيع إظهار عكس ما يضمر ثقافيا في بعده النسقي، لما دخل دائرة اهتمام النقد الثقافي، الرافض لمقولات الجمال وما تختص به من أدوار شعرية، كونها تعمل على تعتيم الحقيقة الثقافية والحيلولة دون الكشف عنها، وأنها تعدّ من أهم مؤشرات المرواغة النصية التي يواجهها الناقد الثقافي في الوقوف على القصدية الثقافية للخطاب الأدبي.

وإذا كان الخطاب النقدي الثقافي يحمل في ذاته قدرا من الانكفاء على الكائن، والاكتفاء بالحاضر الموجود بسلطة الممكن، وإذا كانت مقاربة النصوص لا تتأتى إلا بنصوص الآخرين، فإن «النقد الثقافي في أبسط مفهوماته ليس بحثا أو تنقيبا في الثقافة، إنما هو بحث في أنساقها المضمرة وفي مشكلاتها المركبة والمعقدة، وبذا فهو نشاط إنساني يحاول دراسة الممارسات الثقافية في أوجهها الاجتماعية والذاتية، بل في تموضعاتها كافة بما في ذلك تموضعها النصوصي، ومن هنا يبتعد النقد الثقافي عن الأدوات المنهجية المستعملة في النقد الأدبي، وهي أدوات تبحث في بنية النص وفي ما هو (بلاغي/جمالي)، أما النقد الثقافي فيبحث في الأنساق المضمرة للخطاب، ويتعامل مع النص الأدبي بوصفه حادثة ثقافية كغيرها من الحوادث الثقافية التي تستأثر باهتمام الدراسات الثقافية التي تحاول الكشف عن أدوات التمركز والهيمنة، ومن ثم التعامل مع الهامش الشعبي وما كان يعدّ متنا»[2].

إن الثقافة شيء، والأنساق التي تضمرها شيء آخر، وإذا كان النقد الثقافي يُعنى بدراسة هذه الأنساق وتحليلها فلأنها ذات محمول إشكالي معقد يستمد قيمته من الممارسات الثقافية التي تحقق تموضعه النصوصي، ونظرا لخصوصية هذا التصور فإن الأدوات المنهجية التي يعتمدها الناقد الأدبي في مقارباته الجمالية للنص الأدبي، لا تستجيب للكشف عن أنساقه الثقافية المضمرة، بل لابد من بديل منهجي نوعي لها؛ يعتمده الناقد الثقافي في تعامله مع أسئلة المركز والهامش التي تثيرها الخطابات الأدبية.

[1]– سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، بغداد، ط1، 2012، ص7– 8.

[2]– نفسه، ص7.

خلاصة:

يختلف النقد الثقافي عن النقد الأدبي في تصوره للمنهجي لموضوع الخبرة الأدبية، وإذا كانت نقطة اللقاء الأهم بينهما تتعلق بهذا الموضوع، فإن الممارسات النقدية الثقافية قد تجاوزت مفهوم القيمة الشعرية التي تجعل من الأدب أدبا، مستبدلة إياها بمفهوم النسق الثقافي المضمر الذي يمنح الأدب قيمة أعم وأشمل؛ هي القيمة الثقافية.